

غاية الفن والجمال عن سقراط Socrates

❖ حياته (٤٧٠-٣٩٩ ق.م).

لا تُعرف آراء سقراط إلا من خلال تلامذته وعلى نحو خاص افلاطون، فلم يدون آرائه في كتاب، وإنما كان يُجري مع طلابه مناقشات يطرح فيها فلسفته، لاعتقاده أن الفلسفة لا تدون لان التدوين يحط من قيمتها ويفسدها. ويتفق الباحثون على أن سقراط من اعمق الفلاسفة الإغريق تأثيراً في الفكر اليوناني، وبه ينشطر تاريخ الفلسفة اليونانية إلى شطرين ما قبل سقراط وما بعده. وتتضارب الروايات حول شخصية سقراط التي امتازت بالغموض، ولكن الإجماع ينعقد على انه شخص حقيقي عاش في أثينا ومات فيها. وقد بدا حياته الفكرية سفسطائياً افاد ممن منهجهم في البحث والجدل.. وصار يُعَلِّم شباب أثينا الحكمة، ودخل مع السفسطائيين في محاورات ومجادلات جعلت لفلسفته طابعها الإنساني العميق. ولد سقراط في أثينا لأب نحاس صناعته تشكيل حجارة المباني، وأم تمتهن مهنة القبالة (التوليد)، وكان سقراط يشبه نفسه بالقبالة التي تولد النساء الاطفال، اما هو فصناعته توليد عقول الرجال واستخلاص الأفكار الكامنة فيها فكان يقول (أمي تولد النساء أطفالاً وأنا أولدهم أفكاراً).

كان سقراط يميل إلى حياة التأمل، ولا يهتم بمأكل أو ملبس، واتخذ له شعاراً "اعرف نفسك بنفسك". وإذا جاز لنا أن نحكم على صفات سقراط من مشاهدة التمثال الذي وصلنا من أنقاض الآثار الإغريقية، فقد كان سقراط بعيداً عن الوسامة، له وجه كبير مستدير، وعينين جاحظتين ذات فراسة، والأنف افطس كبير، عاري الكتفين، حافي القدمين، مهلل الثياب. وكانت نصيحته لمن يسأله عن الزواج: تزوج لأنك إن اجتمعت بالمرأة الصالحة كنت سعيداً وإن لم يكن كذلك تعلمت الفلسفة.

موت سقراط

يصور لنا افلاطون موت أسناده سقراط في ثلاث محاورات هي: الدفاع واقريطون وفيدون، وملخص المحاورات الثلاث يتجلى في اتهام سقراط بإفساد عقول شباب أثينا، والإلحاد وإنكار الآلهة والسخرية بهم، وهذه الاتهامات حكمها الإعدام. قُدِّم سقراط إلى محكمة أثينا، وعندما فرغ المدعي من تلاوة اتهامه نهض سقراط وقال: أيها الأثينيون لقد عشت شهماً شجاعاً ولم أترك مكاني خوف الموت، وما أراني اليوم وقد تقدمت بي السن مستظيماً أن أهبط عن ذلك المقام في الشجاعة فأتخلى عن رسالتي التي ألهمتي إياها السماء، والتي تهيب بي أن أبصر الناس بأنفسهم، فإذا كان ذلك التبصير هو ما تسمونه إفساداً للشباب الأثيني، ألا إذن فاعلموا أيها القضاة أنكم إن أخليتم سبيلي في هذه الساعة فإني عائد من فوري إلى ما كنت عليه من تعليم الحكمة.

ودافع عن نفسه، واسقط حجج متهميه بسخرية وتهكم. فحكم عليه القضاة بالإعدام بتجرع كاس من السم عند أول مغيب للشمس. تقبل الحكم بكل شجاعة وكبرياء، ولكن شاعت الأقدار ان يكلل كاهن أثينا الأكبر مؤخرة أول سفينة حجاج أثينا الذاهبة إلى (معبد دلفي) في (جزيرة ديلوس) في اليوم السابق للمحكمة، ويستمر الرحلة ثلاثين يوماً ذهاباً وإياباً، وتعد هذه الأيام - في العرف الاثيني - أياماً حرماً، تعطل فيها أحكام الإعدام ويتوقف فيها سفك الدماء. فاقتيد سقراط إلى سجنه، وكان يتردد عليه تلامذته الأوفياء يحاورهم ويحاورونه في الفكر والفلسفة. وبعد انقضاء ثلاثين يوماً كان يوماً حزيناً كثيباً على تلامذة سقراط، لأنهم سيفقدون معلمهم الحكيم فقد دنا موعد الموت.

نهض سقراط من فراشه متثاقلاً، وغسل روحه وجسده وطهرهما بالماء . ثم جلس إلى زوجته وأطفاله الثلاثة، وودعهم وأمرهم بالانصراف. ودخل عليه تلامذته هلعين وجلين، وعرضوا عليه خطة محكمة للهروب . من السجن ومن أثينا . وهمس تلميذه كريتون: لقد أعدنا كل شيء للهرب فهيا بنا يا أستاذي إلى الحرية. فتطلع إليه سقراط طويلاً ثم قال: كلا يا كريتون لن أهرب من الموت، أنا لا أهرب من قانون بلادي، إني لا أستطيع أن أتخلى عن المبادئ التي ناديت بها عمري كله. بل إني يا كريتون أرى هذه المبادئ الغالية التي ناديت بها حتى اليوم جديرة بذلك الثمن. أجل يا كريتون ليست الحياة نفسها شيئاً، ولكن أن نحيا حياة الخير والحق والعدل فذلك هو كل شيء، لا تحزن يا كريتون. فالإنسان يبدأ بالموت منذ أن يولد. والبكاء اليوم يعادل البكاء يوم الميلاد. وعندما بدأت الشمس تميل نحو المغيب، فُتِح باب الزنزانة، ودخل مدير السجن والسجان، وناولوا سقراط كأساً من السم . فتناوله سقراط وقال: " ها قد أزفت ساعة الرحيل، فليمض كل منا إلى سبيله، فأنا إلى الموت، وانتم إلى الحياة، والله وحده يعلم أيهما الأخير"، ورفع الكأس إلى شفثيه وتجرّع السم دفعة واحدة بلا خوف ولا وجل، وألقى الكأس ومشى بضع خطوات في قاعة السجن وسط زهول الحاضرين وبكائهم، وعندما وهنت قدماه استلقى على ظهره، ولما وصل السم إلى القلب الطيب توقفت الحياة فيه، فاغمض اقريطون عينيه واغلق فمه. واصبح سقراط مثلاً سامياً لمن لا يخافون من الحق ويدافعون عن آرائهم بشجاعة.

❖ منهج سقراط (التهكم والتوليد)

كان سقراط يقول: " إن الحقيقة الوحيدة التي اعرفها هو أنني لا اعرف شيئاً ". فالفلسفة عنده تبدأ عندما يبدأ الإنسان بتعلم الشك، وهذا الشك يدفعه للبحث عن الحقيقة. وكانت لسقراط أسلوب خاص في الجدل عند محاوره الأشخاص ويعتمد على عنصري "التهكم والتوليد".

فالتهمك يستند إلى إيقاع المتحدث في التناقض، حيث يصطنع سقراط الجهل، ويبدأ كالمستفسر الجاهل بالشيء فيطرح الأسئلة على محدثه، ويشعره بأنه سيد الموقف وهذه هي المرحلة الأولى. أما المرحلة الثانية تبدأ بتوجيه الأسئلة التي يُثير فيها بعض الشكوك في التحدث ويستدرجه في تصعيد الأسئلة وتكبير الشك في آراء المتحدث الذي يبدأ بالاستفسار عن الآراء الصحيحة التي اثارها سقراط، واستخراج أجوبة منها في ترتيب منطقي متماسك حتى يبلغ المتحدث الحقيقة التي أراد سقراط أن يصل إليها، فيقر المتحدث بجهله. عندئذ تبدأ المرحلة الثالثة حيث يعتمد إلى عنصر "التوليد" في ان يلقي سقراط على المتحدث أفكاره وارهائه كاملة فيقبلها الشخص دون تردد او مناقشة. وعليه تمر المحاوره في مراحل تهكم — شك — تولد ومن اجل ذلك لقبوه بالماكر، وهو طرح معنى ينفي المعنى الأول ويناقضه، وهو أسلوب في الجدل والمحاوره. فأثار ذلك عليه حفيظة الجميع فاتهموه بإفساد عقول الشباب، كما اتهموه بالإلحاد وإنكار الآلهة والسخرية بهم.

❖ فلسفة سقراط العامة:

يرى سقراط أن هناك نوعان من الأشياء في الوجود أولهما: الصور أو (المثل العليا)، وثانيهما: الأشياء المحسوسة في عالمنا الحسي الذي نتعامل معه، والفرق بينهما هو:

١. إن الأشياء المحسوسة قابلة للتغير وللزيادة والنقصان وقابلة للفساد وتتكون وتضمحل، وهي تتشكل وتُفسر. أما الصور (المُثل) فلا تتغير ولا تتبدل فهي ثابتة وأزلية وحقيقية وخالدة، وإنما خاضعة لنظام المطلق وتشكل جزء منه.
٢. إن الأشياء المحسوسة هي أشياء مشبهة بالصور (المُثل المطلقة)، ولكن هذا التشبيه تشبيه ناقص إلى أصله.
٣. إن الأشياء المحسوسة تسعى إلى الاقتراب من الصور (المُثل المطلقة) كلما كانت أكثر جمالاً وأقرب إلى الحقيقة واقتربت من الكمال. وهكذا فالشيء يكون أكثر جمالاً كلما اقترب من مثال الجمال أو صورته والعكس صحيح. فكلما ابتعدت الأشياء المحسوسة عن مثال الجمال أصبحت أكثر قبحاً.

الفلسفة الجمالية عند سقراط :

١. الفن :

يؤكد سقراط على ربط الفن بالطبيعة، فالفن عنده خلق إيجابي لموجودات الطبيعة، وهذا الخلق مرتبط بالطبيعة بفعل التحليل العقلاني للفنان لموجودات الطبيعة. ففي حديثه مع النحات الإغريقي (براسلي) يقول سقراط: "ليس حقيقة يابراسي إن الرسم هو تعبير عما تشاهده؟ خذ مثلاً على ذلك ... فأنت عندما ترسم الأشياء مقعرة كانت أو محدبة، معتمة أو فاقعة، صلبة أو رخوة، صغيرة أو كبيرة فأنت تصورها بالألوان مقلداً الطبيعة". ويجب براسلي: هذا صحيح.

ولكن هذا التقليد أو المحاكاة لا يفهمه الفيلسوف سقراط على أساس انه نسخ للأشياء وتقليدها تقليداً محضاً. ففي الحديث نفسه مع براسي نعثر على ملاحظة هامة للفيلسوف سقراط عندما يقول لبراسلي: "إنه من الصعب أن تجد إنساناً كاملاً من الناحية الجمالية، أي لا تشوب جماله شائبة، فأنت عندما ترسم إنساناً جميلاً فأنت تأخذ من عدد من الناس اجمل ما عندهم وتجمعه في رسمك لتحصل على الإنسان الذي تستطيع أن تسميه جميلاً".

نستنتج من هذا الحوار أن الفنان يدرس الطبيعة بشكل خلاق ليستخلص من مجمل الأشياء التي درسها أشياء معينة ذات صفات معينة ويحاول تعميمها. ثم يبحث سقراط في إمكانية التعبير فنياً عن المعاني التي ليس لها شكل أو حجم أو لون، الصفات الروحية والحالات النفسية، كالحب والكرهية، والعظمة، والطيبة والشجاعة والشهادة ... وغيرها من المعاني التي تظهر على ملامح الإنسان أو في تصرفاته، أي انه يدعو إلى التعبير الفني عن الحالة النفسية والانفعالات الإنسانية. ويعني هذا، أن سقراط يؤكد على ضرورة التوافق بين الشيء وصورته، وهذا هو التعبير الفني. كما يؤكد سقراط على العلاقة بين ما هو أخلاقي وما هو جميل. فالجميل هو الذي يجمع بين الجسم الرائع المتناسق والأخلاق النبيلة. أي الإنسان الفاضل النبيل. فالعمال لا يمكن تصويرهم كالنبلاء وتتضح هنا معالم سقراط الأرسطراطية كونه كان أرسطراطياً قلباً وقالباً.

٢. الفنان المبدع :

هو ذلك الإنسان ذو الإمكانيات العقلية التي يستطيع بها أن يتجاوز كل قيود المادة وشهوات الحس والحواس ويزدريها ويحرر نفسه من شوائبها، ليتسامى ويتوجه إلى عالم المثل ليحقق المعرفة عن طريق النبوغ والإلهام الإلهي الذي ينتزل عليه من العقل الإلهي واهب الصور، لنقله بدوره إلى الآخرين. وهو الذي يستطيع أن يمثل الفضيلة والنبيل على وجوه شخصياته، رافضاً كل أنواع اللذة الفنية السفسطائية، وبوجه فنه لخدمة الأخلاق والخير لتكون غاية يحققها في اعماله.

فالفنان ملهم وموهوب، يقول عنه سقراط أن الشعراء لا يصدرون في الشعر عن حكمة، ولكنه ضرب من النبوغ والالهام، إنهم كالقديسين أو المتبئين الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها. هكذا رأيت الشعراء، ورأيت فوق ذلك أنهم يعتقدون في أنفسهم الحكمة فيما لا يملكون فيه من الحكمة شيئاً استناداً إلى شاعريتهم القوية. ويعني هذا إن الإبداع هو الهامي صرف وليس للفنان فيه دور سوى انه وسيط بين الآلهة والبشر.

٣.الجمال:

يؤكد سقراط في فلسفته الجمالية على التفسير الغائي للأشياء والموجودات، ويقوم هذا التفسير في الاعتقاد بان لكل شيء غاية يسعى لبلوغها وفيها يتحقق كماله. ولكن هذه الغاية يجب أن تكون موجهة نحو الخير والقيم الأخلاقية العليا. لهذا فالجمال برأيه جمال هادف يحقق الغاية المرجوة منه في تحقيق الخير والقيم المثالية العليا، لهذا يؤكد سقراط على القيم التربوية للفن في بناء مجتمع متقدم في تربية الأجيال من خلال غائية العمل الفني الخلاق. وعليه يكون توظيف الجمال لخدمة القيم الاخلاقية، أي ان يوجه الجمال إلى الخير لا إلى اللذة الحسية الزائلة. ولهذا رفض اتجاه السفسطائيين في توجيه الفن نحو اللذة وعدّها نوع من التدهور والانحطاط.

وعندما يحاور سقراط "كريتوبولوس"، ويسأله:

سقراط: أو تعلم ما فائدة الأعين؟

كريتوبولوس: أن تبصر.

سقراط: ومن اجل ذلك كانت عيناى أجمل من عينيك.

كريتوبولوس: وما السبب؟

سقراط: إن عينيك تبصران في اتجاه واحد مستقيم. بينما عيناى تريان في كل الاتجاهات، لأنها جاحظة، وقد خلقت في موضع بارز من وجهي.

كريتوبولوس: وعلى ذلك فسيفضل "عقرب الماء" "Grab" كل الحيوانات في جمال الأعين.

سقراط: نعم لان عينيه أحد بصرأ وفي موضع افضل من أعين باقي الحيوانات.

كريتوبولوس: ولكن هذا ما تقوله عن الأعين، فهل ستحاول إقناعي بان انفك أيضاً أجمل من انفي؟

سقراط: لا محل للشك في هذا، فما دام الله قد خلق الأنف للشم وأنفي الأفيطس ذو الثقبين الواسعين قد اتجهت إلى اعلى، فهو اقدر على التقاط كل الروائح وافضل من انفك المائل إلى اسفل.

كريتوبولوس: عجباً! أو يكون الأنف القصير الأفيطس أجمل من غيره؟

سقراط: نعم بكل تاكيد، لانه بهذا الشكل لن يضير النظر في حين أن أنفك المرتفع (الأفتى) سوف يضايق إبصارك.

٤. الإبداع:

هو الهامي لتأكيد الخير في الشكل والتكوين الذي يعد هو الغاية والهدف في النتاج الفني